من ظرفاء العصر العباسي :

أبو دلامـــــة

توفي سنة ١٦١ هـ

للأستاذ ضحى إبراهيم الصالح

— ٤ —

وما ترك المنصور أبا دلامة يتدلل محققاً له كثيراً من رغباته إلا لأنه كان يحب العبث به وسماع نوادره ، ولا يريد أن ينقطع منه : بل كان يحاول أن يجعله قريباً منه في مقره . وكان كلما سأل عنه قيل له : إنه في بيوت الخمارين لا فضل فيه . فعاتبه على انقطاعه عنه . فقال أبو دلامة : إنما أفعل ذلك خوفاً أن تملني . فعلم أنه يحاجزه[1] . فأمر الربيع[2] أن يوكل به من يحضره الصلوات معه في جماعة في الدار . فلما طال ذلك عليه قال :

ألم تريا أن الخليفة زُيِّنَا بمسجده والقصر مالي وللقصرا
فقد صدني عن مسجد أستاذه أعالُ فيـــه بالسماع وبالخمر
وكافني الأولى جميعاً وعصرها
فويلي من الأولى وويلي من العصر
أصليهما بالكُرْه في غير مسجدي
فما لي من الأولى ولا العصر من أجر
يكلفني من بعد ما شبت توبةً يَحُطُّ بها عني الثقيل من وزري
لقد كان في قومي مساجدُ جمةٌ ولم ينشرح يوماً لنشيانها صدري
ووالله مالي نية في صـــلاته
ولا البرُّ والإحسان والخير من أمري
وما ضره — والله يغفر ذنبه — لو أنَّ ذنوب العالمين على ظهري ؟

فبلغته الأبيات فقال : صدق ، ما يضر في ذلك ، والله لا يصلح هذا أبداً ، فدعوه يعمل ما يشاء[1] .

وقد لا نرضى عن هذا التساهل صادراً من الخليفة المنصور ، إذ نراه يدع أبا دلامة وشأنه فلا يعاقبه على تهاونه بشعائر الدين أو على اعترافه بشرب الخمر وإتيان المنكر : ولكنك تنفر للمنصور كثيراً من تساهله إذا حاولت أن تعرف كيف كان فهمه لأبي دلامة : كان يفهمه على أنه مخلوق لا بد منه ليسد في هذه الدنيا فراغاً لا يسده إلا أمثاله من الظرفاء ، وأن هؤلاء كثيراً ما يطفئ هزلهم على جدهم فليس من الحكمة أن نحمل كل بادرة منهم محمل الجد ، وإلا لخرست ألسنتهم فما تنطق ، وسكنت حركاتهم فما تداعب ، وانطووا على أنفسهم فما يضحكون ولا يُضحكون : وبذلك نفقد هذا العنصر من المرح الذي لا نكاد نجده على حقيقته إلا لديهم ، والذي ننظر بدونه إلى الحياة بمنظار أسود كئيب .

ولا ريب أن المنصور لم يلزم أبا دلامة بمسجده في القصر لمجرد حمله على الصلاة ، وإنما أراد قبل كل شيء — كما أفهم — أن يظفر منه بين الحين والحين بشيء من نكاته الطريفة ، ومداعباته اللطيفة . حتى إذا وجد أن إلزامه بالصلاة في مسجده سيرهقه من أمره عسراً حتى ليوشك أن تغيب بديهته الحاضرة ، وتوقد دعابته اليقظة ، عاد يعفيه من ملازمة الجماعة ؛ ويقال في رواية أخرى أنه أحلفه أن يصلي في مسجد قبيلته .

بيد أن دلال أبي دلامة على المنصور ولطف محله منه لم يحولا دون تطبيق حكم الشرع عليه أحياناً وإن كان هذا التطبيق مشوباً بشيء من التساهل وقابلاً للتعديل السريع : شرب أبو دلامة في بعض الحانات فسكر وانصرف وهو يميل . فلقيه الحرس فأخذوه وقيل له : من أنت وما دينك ؟ فقال :

دِيني على دين بني العباس ما خُتِمَ الطينُ على القرطاس
إني اصطبحت أربعاً بالكاس فقد أدار شربها برأسي
فهل بما قلت لكم من بأس ؟

فأخذوه ومضوا ، وخرقوا ثيابه وحاجبه وأتي به أبو جعفر المنصور — وكان يؤتى بكل من أخذه الحرس — فحبسه مع الدجاج في بيت . فلما أفاق جعل ينادي غلامه مرة وجاريته أخرى

(١) يحاجزه : يتخلص منه ويتحمل المعاذير الباطلة لانقطاعه عنه .

(٢) هو الربيع بن يونس آخر وزراء المنصور كان أحد أجداده أبو فروة كيسان مولى عثمان بن عفان من سبي الخليل وظل في خدمة المنصور إلى موته .

(١) الأغاني ج ١٠ ص ٢٤٧ .

فلا يجيبه أحد ، وهو فى ذلك يسمع صوت الدجاج وزُقاء الديوك . فلما أكثر قال له السجان : ما شأنك ؟ قال : ويلك من أنت وأين أنا ؟ قال : فى الحبس وأنا فلان السجان . قال : ومن حبسنى قال : أمير المؤمنين . قال : ومن خرق طيلسانى ؟ قال : الحرس . فطلب منه أن يأتيه بدواة وقرطاس ففعل ، فكتب إلى أبى جعفر :

أمير المؤمنين فدتك نفسى ... علام حبستنى وخرقت ساجى ؟
أمن صفراء صافية المزاج ... كأن شعاعها لهب السراج ؟
وقد طبخت بنـــار الله حتى
تقد صارت من النُّطف[1] النضاج
تهشُّ لها القلوب وتشتهيها ... إذا برزت ترقرقُ فى الزجاج
أقاد إلى السجون بغير جُرمٍ ... كأنى بعض عمـال الخراج
ولو معهم حُبستُ لكان سهلاً ... ولكنى حبست مع الدجاج
وقد كانت تخبرنى ذنوبى ... بأنى من عقابك غيرُ ناجى
على أنى وإن لاقيتُ شراً ... لخيرك بعد ذاك الشر راجى

فدعا به وقال : أين حبست يا أبا دلامة ؟ قال : مع الدجاج . قال : فما كنت تصنع ؟ قال : أفوق معهنّ حتى أصبحت . فضحك وخلى سبيله وأمر له بجائزة . فلما خرج قال له الربيع : إنه شرب الخمر يا أمير المؤمنين . أما سمعت قوله « وقد طبخت بنار الله » — يعنى الشمس — فأمر برده ثم قال : يا خبيث شربت الخمر ؟ قال : لا . قال : أفلم تقل « طُبخت بنار الله » تعنى الشمس ؟ قال : لا والله ما عنيت إلا نار الله الموقدة التى تطلع على فؤاد الربيع . فضحك المنصور وقال : خذها يا ربيع ولا تعاود التعرض[2] .

فقد رأيت — فى هذه القصة — أن المنصور أراد أن يطبق حكم الشرع على أبى دلامة ، فعزره على شرب الخمر بالحبس ، ولكنه لم يشأ أن يحبسه مع الناس ، وإنما ابتكر له سجناً مع الدجاج لعله يسمع منه كلمة تضحكه : فالخليفة كان ينازعه عاملان : عامل الدين الذى يأمره بمساواة نديمه بغيره من الناس فى كل حكم شرعى ، وعامل المنادمة الذى يدخل السرور عليه كلما أطلق العنان لأبى دلامة : ولعل العامل الثانى كان أغلب على المنصور مع مثل هذا الظريف .

وإذا كنا قد أطلنا الحديث على نوادر أبى دلامة مع المنصور فلأنه حضر خلافته كلها — وقد دامت اثنتين وعشرين سنة — وكان مقرباً منه ، مكرماً لديه . حتى إذا توفى أبو جعفر وبويع بالخلافة من بعده لابنه المهدى ثم علم أبو دلامة بقدومه من الرَّى سارع إليه فورد عليه بغداد وأنشده :

إن حلفت لئن رأيتك سالماً ... بقرى العراق وأنت ذو وفر
لتصلين على النبى محمد ... ولتملأن دراهما حجرى !

فقال : صلى الله عليه وسلم ، وأما الدراهم فلا . فقال له : أنت أكرم من أن تفرق بينهما ثم تختار أمهلهما . فأمر بأن يملأ حجره دراهم[1] .

وقد لا تحمد لأبى دلامة مسارعته إلى المهدى — بعد وفاة أبيه — وإنشاده هذين البيتين اللذين لم يزد فيهما على أن طلب المال بأسلوب ظريف ، ونرى أن قد كان جديراً به أن يعزيه بوفاة أبيه ويهنئه بالخلافة ثم يؤخر مسألته إلى وقت أكثر ملاءمة ومناسبة : لكنك تعذر أبا دلامة متى علمت أنه ورد على المهدى بعد مضى زمن غير قصير على وفاة المنصور فأعفى نفسه من التذكير بما طوته الأيام لئلا يكون كمن ينكأ الجرح بعد اندماله ؛ ثم إن له من حب المهدى ما يشفع له ، فكثيراً ما كان يداعبه — وأحياناً ما كان يهذبه — فى حياة أبيه ؛ وقد قالوا — وصدقوا — : من لم يوقرك صغيراً لا يوقرك كبيراً .

فأبو دلامة أراد أن يذكر المهدى حين قدم عليه لأول مرة بما كان بينهما فى حياة أبيه من دعابة ومزاح ليحتفظ عنده بما كان له من مكانة ، وليستشعر بنفسه مدى موقف الخليفة الجديد من ظرفه وهزله ، فإن غيرته الخلافة فعبس فى وجهه لزم صاحبنا الصمت ووجد الخير فيه ، وإن بقى على سمحه وأنسه به زاده من المداعبة ألواناً ونال نديمه الظريف .

ولتهنأ يا أبا دلامة ، فما قطب لك المهدى وجهاً ، ولا غل عنك

(١) النطفة : الماء الصافى قل أو كثر

(٢) الأغانى جـ ١٠ ص ٢٥١ .

(١) الأغانى جـ ١٠ ص ٢٥٣ وتجدها فى شذرات الذهب فى ترجمة هذا الظريف .

يداً ، ولا رد لك طلباً ، بل ملأ حجرك دراهم منذ أول يوم قدمت فيه !

وكان هم أبي دلامة الأكبر أن يكسب بمنادمته كثيراً من المال : ويأخذه في قصر الخليفة منه ومن أقربائه وممن يتردد على الخليفة من الأمراء والوزراء ، بل كان يأخذه من الوالي أنفسهم ؛ فإن أمسك أحد منهم يده عنه تنادر به ليفضحه !

دخل على المهدي وبين يديه سلمةُ الوصيف واقفاً ، فقال : إني أهديت إليك يا أمير مُهراً ليس لأحد مثلُه ، فإن رأيت أن تشرفني بقبوله . فأمره بإدخاله إليه . فخرج وأدخل إليه دابته التي كانت تحته ، فإذا به برذَون عظم أعجفُ هَرِم . فقال له المهدي : أي شيء هذا ويلك ! ألم تزعم أنه مُهر ؟ فقال له : أو ليس هذا سلمةُ الوصيف بين يديك تسميه الوصيف وله ثمانون سنة ، وهو عندك وصيف ! فإن كان سلمةُ وصيفاً فهذا مُهر ! فجعل سلمةُ يشتمه والمهدي يضحك . ثم قال لسلمة : ويلك ! إن لهذه منه أخوات ، وإن أتى بها في محفل فضحك . فقال أبو دلامة : والله لأفضحنه يا أمير المؤمنين ؛ فليس مواليك أحد إلا وقد وصلني غيره ، فإني ما شربت له الماء قط . قال : فقد حكمت عليه أن يشتري نفسه منك بألف درهم حتى يتخلص من يدك . قال سلمة : قد فعلتُ على أن لا يُعاود . فقال المهدي لأبي دلامة : ما ترى ؟ قال : أفعلُ ، فقولا أني ما أخذت منه شيئاً قط ما فعلت منه مثل هذه فقضى سلمة لحملها إليه[1] .

فانظر كيف لم يرض أبا دلامة إلا حملُ سلمةَ ألف درهم إليه كانت أشبه بضريبة لم يستطع أن يتخلص منها أحد من موالي الخليفة فكيف بأهل بيته وذوي قرباه ؟

وقد صرح الظريف في هذه القصة بأنه لولا أنه ما أخذ من سلمة شيئاً قط ما تنادر به ، ففي هذا إنذار لكل من يدخل قصر الخلافة سيداً كان أو مولى بأنه معرَّض للفضيحة إذا هو لم يرضخ شيئاً لأبي دلامة !

فما كان أعجب هذا الظريف !

(يتبع) صبحي إبراهيم الصالح

(١) الأغاني ج ١٠ ص ٢٧١ .

من صور النكبة :

رقـــيـة ...

للآنسة فدوي عبد الفتاح طوقان

تدلّت عن الأفق أمُّ الضياء ... ملفّعةً باصـــفرار كئيب
وقد ألمت عن صدور الهضاب ... وهـام التلال ذيول الغروب
وجرّت خطاها رويداً رويداً ... وأومتْ إلى شرفات الغيب
فأطبقن دون رحاب الوجود ... وأغرقنه في الظلام الرهيب
وغشّى الدجى موجات نبضن ... بشوق الحياة ، بوهج اللهيب !
وأجرى تلاعب تاج السنين ... بها لهبات في حنايا الجنوب !
وأوغل في حاليات القصور ، ... وأوغل في كل كوخ سليب
فمدّ الجناح على بسمات الشـــفاه ، وفوق جراح القـــلوب
وضمّ الـــعهيد بأحلامه ،
وضمّ أخا البؤس يغشو الكروب

* * *

وفي وحشة الليل ، ليل المواجع ، ليل الواجد ، ليل الهموم
وللريح ولولة في الشـــعاب ... وللرعد جلجلة في النيـــوم
وللبرق خفق توالى دراكاً ... يشق حجاب الظلام البهيم
بدا (جبل النار) تُرب الخلود ... له روعة الأزلّ القـــديم
تعـــالى أشمّ أمام السماء ... يجاذب منها حواشي الأديم
كأنّ ذراه رُفُن هناك ، على الأفق ، متكأ للنجوم
وكان وراء غواشي الدجى ... رهيب الكون ، عميق الوجوم
تحسّ به رجفـــة الكبرياء ... الجريحة والعنفوان الكليم
وفي قلبه النـــار مكبوتة الزفير ، فيـــا للهيب الكظيم !

* * *

هنالك ، في سفح مهد البطولات ، والمجد ، والوثبات الكُبَرْ !
هنالك ، تحت الضـــباب السفّ والأرض غرق بدفق المطر
كأن الرحاب الحلى بعيون السحالب تبكي شقاء البشر . .
هنالك ثمّ (رُقيّة) كهفٌ ... رهيب عميق كجرح القدر